

# علي محمود طه

بقلم صلاح عبدالصبور

- ١ -

## (( لوحة حياة ))

وكان ذلك في عام ١٩٤٠ . وفي ذلك العام ايضا اصدر علي محمود طه ديوانه (( ليالي الملاح التائه )) ومعظمه من انكاسات سياحته الاوروبية .

● في عام ١٩٤٢ اصدر قصيدة حوارية طويلة عنوانها (( ارواح وأشباح )) ، وكان قد اصدر قبلها مجموعة من الشعر المترجم لبعض شعراء الانكليز والفرنسيين مع بعض التواويل الثرية بعنوان (( ارواح شاردة )) .

● في عام ١٩٤٣ صدر له ديوان (( زهر وخمر )) ، واستوت شهرته الواسعة ورسخت .

● في عام ١٩٤٤ اصدر مسرحية شعرية (( اغنية الرياح الرابع )) هي جديرة بان تدرس في نطاق نظائرها من مسرحيات شعراء الرومانتيك الانكليز ، كشيلى وبايرون ، ولكنها لا نستطيع ان ندخل في الترات المسرحي الاصيل .

● في عام ١٩٤٥ صدر له ديوان (( الشوق العائد )) ، واجمل قصائده هي القصيدة التي سمي الديوان باسمها .

● في عام ١٩٤٧ صدر له ديوان (( شرق وغرب )) ، وكانه الانتفاضة الواهنة للذباله المحترقة .

● توفي الشاعر عام ١٩٤٩ ، في السابعة والاربعين من عمره . بعد ان ملا الدنيا وشغل الناس زمانا . واتعب مقلديه من ناشئة الشعراء بفتنة موسيقاه وعاله الموشى . ولكن الاعوام التي تلت موته تشهد - لامر لا ندره - لونا من خمول الذكر او اضمحلاله . . . . . اظلم ذلك ام عدل ؟

- ٢ -

## محاولة جواب

ينقلني الحديث عن علي محمود طه الى جنة الصبا وبراهته ، لاراني حدثا يطعم ان يكون شاعرا ، فهو يحفظ ويقرأ ويقرزم ، وينقل عينه بين لزوميات ابي العلاء وسيفيات المنبج ، فاذا استشرف عصره قرأ لشاعرين كانا في ذلك الوقت مهوى افئدة محبي الشعر في مصر ، اذ كان سواهما من شعراء سائر ارضي الوطن العربي عنا نائين لا تكاد نرى نتاجهم .

كنت مقنونا باحد هذين الشعارين ، مجرد محب للاخر ، وكنت نقيضا في ذلك لمظم اصحابي الذين كانوا يحفظون ويقرؤون ويقرزمون معي . اما فتنتي فكانت بمحمود حسن اسماعيل ، وكان حبي لعلي محمود طه .

كان علي محمود طه في تلك الفترة قد استوفى عطاه الشعري . وكانت ايامه القليلة تشارف نهايتها . ورغم انه كان في ذلك الوقت في حوالي الخامسة والاربعين من عمره فقد كنا حين كنا نقرأ شعره نتوهمه شابا جاوز الثلاثين بقليل ، رغم انه قال لنا ذات مرة :

في المنصورة ، اجمل مدن دلتا ، التي يعيش اسمها في التاريخ منذ اسر فيها القديس لويس ، ابا ن غزوته الخائبة لمصر ، ولد علي محمود طه في عام ١٩٠٢ .

والمنصورة ترقد ناعمة بين نيل دمياط والبحر الصغير (( ترعة من ترع شرق الدلتا )) ، وقد كانت في ذلك الزمان مقرا مزدهرا لتجارة القطن ، وفيها جالية من متمصري المهاجرين من شعوب البحر المتوسط .

وما زالت شهرة نساء المنصورة بالجمال تخال اذهان المصريين ، وفي نساها شقرة في الشعر واخضرارا في العيون ، والخبثاء يقولون ان ذلك من اثر الفرنسي .

● أسرته على شيء من النعمة ، وتعليمه متوسط مهني ، اذ تخرج في مدرسة الفنون والصنائع عام ١٩٢٤ ، وظل حريصا على ان يلحق باسمه لقب (( المهندس )) كنوع من الوجاهة الاجتماعية . رغم ان درجة مدرسته لا تتيح له هذا اللقب ( في عرف كتاب الواوين ) الا بمشقة ومجاملة .

● عمل موظفا بأثناء المنصورة ، وصاحب مجموعة من شعراء المنصورة ، منهم ابراهيم ناجي (( الببل الجريج )) ومحمد عبدالمعطي الهمشري (( عاشق الطبيعة )) وصالح جودت (( العازف ذي الوتر الواحد )) ، وتراسل مع البلاغي والمنشيء المعروف احمد حسن الزيات ، الذي كان يحرر مجلة (( الرسالة )) . ونشر في مجلته بعض شعره .

● انتقل الشاعر الى القاهرة في اوائل الثلاثينات ، ونشر بعضا من شعره في مجلة أبولو ، ثم اصدر ديوانه (( الملاح التائه )) في عام ١٩٣٤ وعمره اثنان وثلثون عاما ، فكان فاتحة شهرته الواسعة .

كتب عنه الدكتور طه حسين يقول :

(( هو شاعر مجيد حقا ، ولكنه ما زال مبتدئا ، وهو شاعر مجيد حقا ، ولكنه في حاجة الى العناية باللفة واصولها ، وتعرف اسرارها ودقائقها ، فلا ينبغي للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم ان يكون علمهم باللفة يسيرا محدودا . وأنا واثق بان شاعرنا ان عني بلفته ونحوه وقافيته ، وتوخي ما ألف من خفة التصوير ورشاقته ودقته ، فسيكون له شأن في تاريخ الشعر العربي الحديث )) وكان ذلك الحكم الختامي من طه حسين بعد كثير من الاطراء وقليل من المؤاخذة .

● نشر بعد هذا الديوان قصائده في كبريات الصحف ، وفي صيف سنة ١٩٣٨ عبر البحر الى اوروبا . ورغم ان هذه السياحة الغربية كانت متأخرة ، الا انها اثرت فيه تأثيرا بالغا لمل الاثر الذي يدانيه في حياته هو اثر الشهرة الشعبية الواسعة التي لقيها حين غنى عبدالوهاب كبير الممثلين في زماننا اغنية الجنود ، ومشى المتسكمون في حواري القاهرة ينشدون :

(( أنا من ضيع في الاوهام عمره )) .

فرغت لكم من وراء السقام

وقد جلت الشيب رأسي اشتمالا

وما ان بكيت الهوى والشباب

ولكن بكيت الصلا والرجالا

وحين جئت القاهرة من بلدي الصغيرة قبل ان يفارق علي طه الحياة بعامين ، كان مطمحي ان ارى شاعري . وفي احد مقاهي الجيزة القريبة من الجامعة تعرفت بانور المداوي رحمه الله . وكان في ذلك الوقت المصنف الشاب ، وكانت له صحبة نعرفها بعلي محمود طه ، فرجوت ان يقدمني اليه لاسمعه بعضا من شعري . وقال لي المداوي ان علي طه يتخذ له مجلسا في احد المقاهي الراقية في وسط القاهرة ، ولعلي لهذا ، وانا الصبي الريفي تهيب للقاء . اما محمود حسن اسماعيل ، فقد كان يتخذ مجلسه في المقهى نفسه دون ان ادري . كان يجلس وحيدا معظم وقته ، في يده عصا غليظة ، وعيناه احدهما خايبة والاخرى مشتتة ، وكثيرا ما يسند ذقنه الى عصاه .

قلت لانور : واين محمود حسن اسماعيل ؟

فضحك ضحكة رنانة ، وأشار الى مائدة قريبة قائلا :

« هاهوذا » .. قمنا عن مائدتنا ، واتجهنا اليه ، وبعد التعارف جلست حيا محتشدا ، واسمعت محمود بعد تمنح واستئذان متداب بعض ما فاضت به فريحة ابن السابعة عشرة ، واشهد الله ان صديقي الكبير ، فيما بعد ، محمود حسن اسماعيل ، كان أكثر كثيرا من متحفظ ، وكانني واغل دخلت عاله . ولكنني مع ذلك قمت عن مجلسه سميذا . وحيته لرفاعي في الجامعة .

كنت ارى عندئذ في محمود حسن اسماعيل شاعرا متفجرا ، بينما ارى المصقل المحكم في شعر علي طه ، وكنت أؤثر التفجر على الصقل ، والفوضى المنظمة على النظام ، ولكنني كنت احتفظ رغم ذلك بنصف قلبي لعلي محمود طه ، ولم اكن ادري ان اصدقاء جديا يتسللون الى قلبي ، فيزحمون علي طه ، حتى فوجئت بموته في نوفمبر سنة ١٩٤٩ . يشق علي نعي الشعراء ويبيكني ، بل وينفضني من اعماقي . وعلى قلة ما بكيت فقد بكيت لموت علي طه ، ولموت ابراهيم ناجي ، ولموت بدر شاكر السياب .

وبعد البكاء تأملت مكان علي محمود طه ، فوجدته قد صغر . ووجدت من زاحمه هو بلبل الشعراء الجريح ابراهيم ناجي ، الذي أسمدني الحظ بمعرفته في العام الاخير لحياته ، ثم هذه اللغة التي اصبحت اتقن القراءة بها ، والتي استطعت من خلالها ان افرا بعضا من شكيبير وكيتس وشيلي واليوت .

والان ، اجديني في هذه الخمس عشرة سنة الاخيرة ، وقد بعدت عن هذا العالم كله ، عالم ايام الصبا ، فلست اعيد قراءة شيء منه الا نادرا . ولكنني حين عرض علي الاخ سهيل ادريس ان اكتب هذه المقدمة لمجموعة منتقاة من شعر علي طه فرحت بعرضه . فتلك عودة الى لقاء الاحياء الاول . وطلبت دواوينه في مكتبتي فاذا معظمها معار او مفقود ، فطلبتها عند باعة الكتب ، فاذا بها نافذة . وتساءلت كيف لم يعد طبعها وقد اعيد طبع بعضها خمس مرات او ستا في حياته القصيرة . ايموت الشعراء عندنا بموتهم ، أم يستجيب الناشرون لما يحب القراء ويطلبون ؟ ماذا نقل علي محمود طه من منطقته الشمس المشمس الى حافة الظل الظليل ؟ اهو تغير ذوق العصر واختلاف تلك المنطقة القامضة الفريدة من ادراك الامة ووجدانها واحساسها او ما يطلق عليه احد النقاد « Sensebility » بحيث انه ما كان يفتن القراء قبل عشرين او ثلاثين عاما لم يعد يفتننا الان ، أم هو شيء كامن في شعر علي محمود طه ، يجعل سيرورته وثيدة في الزمان ؟

ولعل ما يجعل هذا السؤال ملحا هو مدى الشهرة الواسعة التي حظي بها علي محمود طه في زمانه ، بحيث خسف نجمه نجوم معظم

معاصريه من الشعراء . وقد كان مكان الشاعر من اهتمام المجتمع في ذلك الزمان مكانا محدودا ، وكان المجتمع كان ينتقم لما اسبغ من شهرة واسعة على لسان الشعر وعزاه : شوقي وحافظ . ولكن علي طه استطاع ان ينطوي الدائرة التي لم يستطع ناجي ومحمود اسماعيل وابو شادي وصالح جودت والهمشري ان ينطويها . وها هي الدائرة تضيق على ذكره بعد جيل واحد من الزمان :

وثمة سؤال يولد من السؤال الاول ، وهو اين مكان علي محمود طه في حركة الشعر الحاضر ؟ ولن نستطيع ان نترك مكانه الا اذا قسنا مدى اثره في خلفائه من الشعراء . وعند ذلك نجد اثره ضئيلا واهنا . فرغم كثرة مقلديه في زمانه الا ان احدا منهم لم يستطع ان يتمثله ثم ينطلق به الى افق جديد . فكانه نهر شق طريقه على مهل ، ثم تسرب في الرمل .

فلنعد اذن قراءة علي محمود طه على هذه الاسئلة تجد جوابا .

\*\*\*

يفجؤنا في علي محمود طه هذا الاتساع الشديد لعاله الشعري . فلن نذكر غرضا من اغراض الشعر كما يراها القدماء او المحدثون الا ووجدت لعلي طه اسهاما فيه او اقترابا منه ، قل ما شئت في الملح والرناء والفزل ماجنه وعفيفه والوصف ظاهره وباطنه ، وقل ما شئت في شعر التأمل او الفلسفة او الحكمة . ولو تجاوزت ذلك الى الشكل لوجدت القصيدة الموحدة القافية التي تنسج على منوال القصيدة التقليدية العربية ، ثم لوجدت القصيدة الرباعية القافية والثنائية والموشحة ، ثم لوجدت القصيدة الحوارية ، وضربا من محاولة المسرحية الشعرية . ولو تجاوزت ذلك الى عروض الشعر لوجدت كل اجزاه ممثلة في نتاجه الشعري ما عدا بعض غير الدارج منها .

ولو وقفنا عند عالم اهتماماته وقفة متأنية لوجدنا كيف يستطيع شاعر بمفهومنا المعاصر ان يهتم بان يتحدث عن امرأة ترتدي فلابسة رفيقة نائمة تحت نافذتها المفتوحة في ليالي الصيف القمرية . فيقول :

على خديك خمر	صباية أفرغها دنا
رحيق من جني الفتنة	لا ينضب او يفتنى
وفي نهديك طلسمان	في حلمهما اقتنا
الى كتزهما المعبود	بات يعالج الردنا

أغار ، أغار ان قبل	هذا الثغر او ننى
ولف النهدي في لين	وضم الجسد اللدنا
فان لضوئه قلبا	وان لسحره جفنا
يصيد الموجة العذراء	من اغوارها وهنا

وهو مع ذلك يحيي عيد الهجرة عاما بعد عام

غن بالهجرة عاما بعد عام      وادع للحق وبشر بالسلام  
وترسل يا قصيدي نفما      وتنقل بين موج وغمام  
صوتك الحق فلا ياخذك مسا

في نواحي الارض من بقي ودام  
ويقول منشدا الهجرة في قصيدة اخرى :

يا شرق ملء خاطري	سحر وملء ناظري
أوحى ليلك القديم	أم رؤى الزواهر
يا شرق ، أي ليلة	رائحة الدياتر
نجومها خلف الغمام	اعين المسادر
ترنو على جانب السماء	للمهاجر
تمسك من شعاعها	مثل جناح طائر
رعيا المحب للحبيب حف بالمخاطير	
تقول ، ههنا السرى ومن هنا فحاذر	

والشاعر حين يتحدث في قصائده الوطنية في ايام الانتفاضة التي تلت ١٩٤٥ يهاجم الانكليز ، ثم نجده يرثي سياسيا مرييا كان من اخلص أعوان الانكليز هو امين عثمان قائلا :

هبي أنها نعمة نلتها  
فان شئت أرجعتها ثانيا  
فقلت ، وغضت بأهدابها  
سأغض عيني كي لا أراك  
كانك في الحلم قبلتني  
ومن غير قصد ، فلا تندي  
مضاعفة للفم المنعم  
اذا كان حقاً فلا تحجم  
وما في صنيئك من مآثم  
فقلت : وأفديك أن تحلمي

لم شهيد فيك مهدور الدماء  
كل غال من متساع ودم  
قيل اودي بأمينن قائل  
كيف يودي بفتسى من خلقه  
لا تقولوا طائش في رأيه  
انما اناس لهم آراؤهم  
لا تراعي ، انت ام الشهداء  
لك يا مصر ، وما عز الغداء  
كيف يودي بذيك الامناء  
كل معنى من سماح ووفاء  
انما الرأي عن العذر براء  
وهم الاحرار فيها الطلقاء

وقد يكون هذا الاساع في العالم الشعري مع تنافر زوايسا  
الرؤية ، وهذا الحرص على الدنو من تصور عامه الناس للاشياء  
ورؤيتهم لها ، هما الميراث الشعري الذي ورثه علي طه من ترائنا  
القديم ، فصورة الشاعر المجيد في ترائنا القديم هي صورة القائل  
الفصيح الذي يستطيع النظم في شتى فنون القول ، دون ان يحس  
بحاجة نفسية الى التعبير عن غرض ما من الاغراض . فهو  
يمدح ويرثي ويتغزل ويصف ويطلق الحكم بنفس الدرجة من الاتقان  
وهو لا يحاسب الا على اتقانه ، وعلى قدرته على الاندماج في الموروث  
التقليدي للغرض الذي يكتب فيه . كما كانت صورة الشاعر المجيد في  
ترائنا القديم هي صورة القائل الفصيح الذي يعبر عما في نفوس  
الناس لا عما في نفسه وذاته ، ويستطيع ان يصوغ خلجاتهم لا  
خلجاته ، بحيث يجد المتعمق بدهاه ما كان يفكر فيه نابضة في  
كلمات الشاعر .

فهل نستطيع اذن ان نقول ان علي محمود طه شاعر سلفي تقليدي؟  
لا اظننا نستطيع ان نذهب الى هذا المدى . فهو بلا شك شاعر يعي  
في عصره . وما اظن نصيب السلفية فيه اكبر من هذا القدر الذي  
أشرت اليه .

ولكن .. ما مدى حياة علي محمود طه في عصره ؟  
الواقع ان قياس مدى حياة الشاعر في عصره امر عسير .  
ولو طرحنا للمقارنة شاعرين كشوقي وأبي العلاء المرعي لترى مدى  
حياة كل منهما في عصره لتكشفت لنا المقارنة عن ان أبا العلاء  
المرعي كان أكثر حياة في عصره من شوقي ، ورغم أننا نجد في  
شوقي متابعة دؤوبا لاحداث العصر وشخصياته ، ونلتقط من شعره  
اسماء اعلام العصر وامرائوسادته ونابيه ، ورغم أننا لا نجد شيئاً  
من ذلك قط في شعر أبي العلاء ، فان شعر أبي العلاء المرعي يقدم  
لنا النبض الحضاري لارض الشام في القرن الحادي عشر باكثر مما  
يقدم لنا شوقي النبض الحضاري لارض مصر في القرن العشرين . فهل  
يكون الفرق بينهما ان أحدهما عاش في عصره ، بينما عاش  
الآخر مع عصره ، وأن أحدهما اندمج فيه ، بينما أشرف الآخر  
عليه من عل يرى ويسمع ويتأمل ؟

هنا لا بد من الالتحاح على لون من وحدانية الشاعر ، فالشاعر  
في مراحل التأمل والاحساس والابداع ليس جزءاً من العالم ، ولكنه  
معادل له ، وهو لا يفني فيه . ولكنه يقف ازاده . وهو يستطيع ان يحقق  
فرديته ، بل وحدانيته . وتلك درجة لم يستطعها الا القليلون .

لا يعني ذلك قط ان يصرف الشاعر تأمله وانفعاله عن عصره ، وان  
يشوي في عالم وهمي غير محدد ، فذلك ، فضلاً عن استحالة ، لا  
يصنع شاعراً قط ، ولكنه يعني ان تكون للشاعر الرؤية النافذة  
المتعمقة ، ثم القدرة بعد ذلك على اعادة تركيب الرؤى والاحساسات ،  
بحيث لا يقع تعبيره في دائرة العادي والمبتذل ، وبحيث يكشف شعره  
لفارقه ، لا الجانب المألوف من التجربة الانسانية ، بل جانباً آخر جديداً  
كان مستكناً في اغوار الانسان أو اغوار العصر حتى جلاه لنا  
هذا الشاعر .

واظن ذلك كله يستدعي ان يكون للشاعر وجهة نظر عامة في  
مشكلات الكون الكبرى ، او بتعبير عصري ان تكون للشاعر فلسفة ،  
ولا نعني بالفلسفة هنا ان يكون الشاعر فيلسوفاً او قارئاً فلسفة ،  
بل ان يكون له تصور خاص للكون تصنعه ثقافته وقراءته وتجاربه  
ووراثته ومزاجه ، واذا كان لكل انسان فلسفة بهذا المعنى ، وكان  
لكل شاعر فلسفته ايضا ، فان بعض الشعراء يهربون من انفسهم

وعلى هذا المنوال تمضي هذه القصيدة . ويمضي كثير غيرها من  
قصائده ، منفردة في عالمها ، بعيدة الشبه بما سبقها وتلاها ، فكان  
الشاعر يتخذ لكل مقام مقالة ، ويحشد لهذا المقال أهبة ، فيعد  
له ما يوائم من أفكار وصور ، وما ينسجم معه من تعبير .  
والحق ان علي محمود طه مسجل وافسر الدقة والامانة  
للأحداث المصرية والعربية والعالية ، فقد كتب قصائد عن باريس  
وسقوطها وعن الحرب واهولها وعن كل القضايا الوطنية والسياسية  
التي مرت بالوطن العربي . وهو يشبه شوقي في ذلك كثيرا ، ووضح  
شبه له بشوقي هو منهجه التقريري الخطابي في تناوله هذه الأحداث ،  
ودنوه في تناولها من الأفكار الشائفة الدائبة ، وحرصه على جهارة  
الملفظ ورنين الأيقاع ، فكانه يريد ان يخاطب بهذه القصائد جمهوراً  
واسعاً ، أو كأنه يشهدها في حفل زاخر .

هذا الجانب الاجتماعي من شعر علي محمود طه هو اخفى  
جوانبه ، فقد كان القراء يعرفونه بصواته وحديثه عن معاشقه .  
والحق ان خمسي أشعاره على الاقل تخرج عن نطاق ذكر الصبوات  
والعاشق الى أفق القضايا السياسية والقومية والاجتماعية .

ونحن لا نستطيع ان نحاسب شاعراً على اتساع عالمه ، فتلك  
ميزة تحسب له ، لا نقيصة تحسب عليه . ولكننا نطالبه حين يتسع  
عالمه ان تكون زاوية رؤيته لهذا العالم المتسع زاوية محددة  
موحدة ، وان تكون النفس التي تتحدث عن الهجرة وعن ابطال المعارك  
وعن سياحة الجنود في عرض القتال نفساً متألفة لا متقسمة .  
فنحن لا نستطيع ان نتحمل شاعراً يلبس لكل حالة لبوسها ، ويتخير  
لكل موضوع زاوية الرؤية التي تنسجم معه ، والتي تنسجم مع  
الذوق العام لجماهير الناس حين يعرضون له . وهكذا كان علي  
محمود طه الى حد كبير . فهو اذا تحدث عن الصبوة والشيب  
هبط في الفكر رغم علو الصياغة ليقول :

وقيل كفته عن دنيا شوارده  
بيضاء من شعرات الرأس غراء  
لا ، يا غرامي ، هذا الفن ملء دمي  
وبالنار والصبوات الأحمر عشاء

ما أفلتت من يدي غيداء عاصية  
الا وعادات اليها وهي سمحاء  
ويقول في رثائه لصديقه الشاعر محمد الهمشري :

لم يا حياة ، وقد احلك قلبه  
لم تؤثر به هوى الحب الشاكر  
أخليت منه يديك حين حلاه  
من ذلك الادب الرفيع الباهر

لو عاش زادك من غرائب فنه  
ما لا يشبه حسنه بنظائر  
ويقول في قصيدة بعنوان « حديث قلة » ويفجؤنا بهذه السطحية  
الشديدة في الاحساس ، رغم جودة الصياغة وحسن انتقاء الكلمات :

تسألني حلوة الميسم  
تحدثت عني ، وعين قبله  
فقلت أعابها ، بل نسيت  
فان تنكريها ، فما حيلتي  
سلي شفتيك بما حسناه  
الم تمضي عندها ناظريك

متى أنت قبلتني في فمي  
فيا لك من كاذب ملهم  
وفي الثغر كانت ، وفي المصم  
وها هي ذي شعلة في دمي  
من شفتي شاعر مفرم  
وبالراحتين ، ألم تحملي

ومن فلسفتهم حرصاً على أن تتسع دائرة جمهورهم ، وان يحتفظ شعرهم بصفاته الساذج الذي يستطيع ان يتوجه الى الجماهير الساذجة فيكون في ذلك دمارهم . « الشهرة العامة هي الدمار العام » كلمة رائعة من كلمات الشاعر ريلكه .

على الشاعر ان تكون علاقته بنفسه اكثر وثوقا وحميمية من علاقته بالعالم ، حتى يستطيع ان يعيش ازاء عصره ، لا فيه .

- ٣ -

## مراحل

يسأل كل شاعر نفسه في مطلع حياته الشعرية ، ماذا يريد ان يقول بشعره ، وما دور الشاعر في هذه الحياة . وكثيرا ما تتشابه امامه السبل . فما أكثر طرق الشعر ، وبخاصة في ادب كادبنا العربي طويل العمر ، حافل بالنماذج من الشعراء . منهم من أفنى عمره تجويدا للصنعة ، ومنهم من أفنى عمره تصيدا للانهاج . ومنهم من عد الشعر لونا من البراعة ، ومن عدّه لونا من العناء . وكثيرا ما تتوقف على اجابة الشاعر عن هذا السؤال اشياء كثيرة ، قد يكون من بينها : ماذا يقرأ الشاعر وماذا يدع ، وماذا يحب وماذا يكره ، بل كيف يسلك في الناس ، وما يكون مظهره ، وأي فنّان يرتديه ( ولكل انسان فنّانه ) .

ويحدث أحيانا ان تغيّر الاجابة عن هذا السؤال من مرحلة الى مرحلة في حياة الشاعر ، فهو سؤال دائم الالحاح والطرح اذا وهب الشاعر نفسا لا تائف السكون وتكثر التأمل في شأن ذاتها وشأن الحياة من حولها .

وقد كان جواب علي محمود طه عن هذا السؤال في اول حياته الادبية واضحا في قصيدته الفخمة « الله والشاعر » ، اذ يقول :

لا تفزعني يا أرض ، لا تفرقي

من شبح تحت الدجى عابر

ما هو الا آدمي شقى سموه بين الناس بالشاعر

ثم يقول : ( والخطاب لله ) :

نا الذي فدست احزانه الشاعر الشاكي شفاء البشر

فجرت بالرحمة الحانه فاملا بها يارب قلب القدر

ما الشاعر الفنان في كونه الا يد الرحمة من ربه

مصري العالم في حزنه وحامل الآلام عن قلبه

كانت هذه النظرة الرومانتيكية هي جواب الشاعر الاول ، ومنها انطلق علي محمود طه في ديوانه « الملاح النانه » وبها كاشف الناس بشعره . وقدم لهم صوتا رومانتيكيا ينبع من الجو العام الذي ساد الشرق العربي في عشريناته وتلاتيناته ، بتأثير التغيير العام الذي أصاب الحياة العربية ، اذ وجدت نفس الظروف التي نشأت منها الرومانتيكية الأوروبية من هجرة للمدن وبدايات للتعليم العام الذي تنمو معه الفردية ، واتساع للطبقة المتوسطة ، وتفكير في التصنيع او تحقيق لبعضه . كما وجدت نفس الظواهر الروحية من حملة على العقل وايشار للخيال .

ومن الحق ان معظم مظاهر التعبير عن الرومانتيكية في بلادنا العربية كانت اصداء للرومانتيكية الأوروبية . فالنفلوطي مثلا الذي أبكى كل قلب مع « ماجدولين » من بغداد الى تطوان كما قال احد النقاد ، كان مربيا صائفا لبعض الانار الأوروبية ، وابو شادي وناجي وابو شبكة كانوا شديدي التأثير بما قرأوه في ادب الغرب ، والزيات المنشيء والبلاغي وصديق علي طه كان مترجما لبعض انار الرومانتيكيين الاوروبيين ، وهو الذي أقرأ علي طه بعض مترجماته ، وهو الذي حضه على تعلم الفرنسية .

ولكن هذا التأثير لا يستطيع ان ينفي ان البيئة العربية كانت مهيأة للموجة الرومانتيكية ، وان هذه الموجة لذلك كان عنصر

الاصالة فيها واضحا ، فاذا كانت قد بدأت تقليدا فقد استطاعت ان تكون بمد فترة وجيزة اتجاها رئيسيا ، بل استطاعت ان تكون هي الاتجاه الرئيسي في ادبنا العربي في تلك الفترة . وعلي طه لم يكن رائدا لهذا الاتجاه ، ولكنه كان أكثر شعرائه صفلا ، وكأنه أحس بغيريته الاجتماعية أن هذا الاتجاه هو اتجاه المرحلة . ومن هنا فان ديوانه « الملاح النانه » دون دواوينه اللاحقة ، صورة من أروع صور الاتجاه الرومانسي .

ففي قصيدة مثل قصيدة « النشيد » نستطيع ان نلمس اصداء من ليالي دي موسيه التي ترجمت الى العربية في وقت مبكر ، ولكننا لا نخطئ اصلتها الرومانتيكية . وفي قصيدة « الامسية الحزينة » .. يقدم لنا صورة حياته قائلا :

أوي الى جنبات الصخر منفردا

ابكي لامسية مرت وليلات

قد غيرتنا الليالي بمدى سيرا

وخلفتنا العوادي بعض اشوات

يا طول ما نغمت للصخر اناتي

وشد ما رجعت للموت آهاتي

يا للبحيرة من يرتاد شاطئها

ومن يسر الى الوادي مناجاتي

ومن يعيد لنا اطياف ليلتها

وما غنمنا عليها من اويقات

وحلوة في حفايفها وقد عثت

يد الصبا بحواشيتها الموشاة

يضمنا باسق في الشط منفرد

ضم الشبتين في علباء جنات

وللقلوب احاديث يجاوبها

تناوح الطير في ظل الخيميلات

وحين يحدثنا عن البحيرة في المقطع الذي اورده لا نملك الا ان نذكر بحيرة « لامرتين » ، لا تصفا ، فنحن نعرف ان الشاعر كان جارا لبحيرة المنزلة احدى بحيرات دلتا مصر ، ولكن فرق بين ان يجاور انسان بحيرة من البحيرات ، وان يجعل منها عشا لقوامه وموطئا لذكراه .

وما أكثر الاوصاف التي تطالعنا في قصيدة مثل « صخرة الملتقى » والتي لا تكون الا نموذج الشاعر الرومانتيكي ، فهو :

... الغريب في تيهه النا ( م ) نسي كئيب الفؤاد والنظرات

صحراء الحياة ، كم همت فيها شارد الفكر تائه الخطوات

ظللتني الحياة منفرد النذ ( م ) س أبث المحيط حر شكاتي

انا فوق المحيط كالطائر التنا له يعلو موائج الملحمت

انا ذاك الشادي الذي نسلت رب ( م )

شس جناحيه هبة العاصفات

انا ذاك الشريد في صحراء ال ( م )

عيش ضل السبيل في الفلوات

انا فيشارة جفتها الليالي في زوايا النسيان والقفلات

ويصور الشاعر نفسه في قصيدة من « رمال المصيف » فيقول :

اذا اقبل الليسل يا حيرتي تفقدت في الشط حوريتي

وعدت كئيبا الى غرفتي اراعسي الكواكب من شرفتي

واشغل بالوجد سيجارتي فلا البدر حيب لي سهرتي

ولا البحر هدا من ثورتني وحيدا تسامرني فكرتي

هذه الصورة الشخصية جديرة بان تستوقفنا ، فلو كانت بالريشة

واللون لوجدنا فيها نموذجنا شائعا للشاعر الرومانتيكي .

ولننظر في قصيدة « انتظار » هذا اللقاء العاطفي الرومانتيكي ،

اذ يلتقي المحيان فيظلهما الصمت الرهيب ، ويظنان صامتين حتى  
تحين ساعة الوداع ، فيتوادعان وقد امسك كل منهما يد صاحبه،  
واللمع يهمل من عيونهما .  
اقلت بالبسمات تملأ خاطري

سحرا ، وأملأ من جمالك ناظري

واظلنا الصمت الرهيب ونحن في

شك من الدنيا وحلم ساحر

حتى اذا حان الرحيل هتفت بي

فوقفت واستبقت خطاك نواظري

وصرخت بالليل المودع باكيما

ويداك تمسك بي وأنت مفادري

وصدر ديوان « الملاح النائه » عام ١٩٣٤ ، وهذه هي الصورة  
التي يقدمها عن شاعره ، وهذه هي الصورة التي اختارها الشاعر  
لنفسه ، او الاجابة التي اجاب بها عن السؤال الذي خابله .

وبين الديوان الاول والثاني ست سنوات ، فقد صدر ديوانه  
الثاني « ليالي الملاح النائه » في عام ١٩٤٠ ، بعد سياحة الشاعر  
القصيرة لعامين متواليين في صيف اوربا . ولقاء الشرقي باوروبا  
أحد المحاور الهامة في ادبنا العربي الحديث ، فهو الذي انتج  
« اديب » لطف حسين ، « سندباد عصري » لحسين فوزي ، و « قنديل  
أم هاشم » ليحيى حقي و « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، وغيرها  
من اعمال هامة في ادبنا الحديث .

لقاء الشرقي باوروبا تجربة قد تعصف بالشرقي فتفقده مواطء  
قديمه ، وقد اتفتح عينيه على رؤية جديدة لواقعه ، وقد تعيده الى  
بلاده أشد ايضالا في تقديس سلفه وعبادة اجداده .

واوروبا اوجه كثيرة ، فيها الثقافة والحضارة ، وفيها  
الموسيقى والفن ، وفيها الرسم والتصوير ، وفيها التقدم الصناعي  
والتكنولوجي ، وفيها جمال الطبيعة ، وفيها أخيرا سهولة العلاقات  
بين الرجل والمرأة .

ومن سوء الحظ أن علي محمود طه حين زار اوربا عام ١٩٢٨  
لم يكد يظن الى أن هذه السنة كانت سنة تجمع نذر الحرب  
العالمية الثانية ، وقمة النزاع بين المذهب والاراء . ولم يعرف  
من اوربا الا مناظر بحيرة كومو وزورق الجنودل في عرض البحر،  
وخمر الراين المعتقة ، وهبنا تسامحنا في أن لا يعرف صراع الفلسفات  
والاراء ، فهل نتساج في أن يجهل صراع المذاهب الفنية بين السريالية  
والواقعية والرمزية ، وان لا يتلمس أسماء كانت في ذلك الوقت  
تطوف باوروبا شرقا وغربا مثل فرويد وبيكاسو وبرجسون وشو  
وفيرهم .

لعل مما قاد علي محمود طه الى هذا المزلق في واجهته  
لاوروبا انه لم يتلق في صباحه ومطالع شبابه تعليما منظما ، فهو  
ينظر الى الادب والادباء كظواهر منفردة لا تيارات حضارية وفكرية  
لها اصولها وامتدادتها في تربة المجتمع وفي عروق السياسة  
والاقتصاد والفلسفة والتاريخ . ولعله اختار في تعبيره عن اوربا  
دور السائح المتلذذ بما يراه ، اجابة أخرى لنفسه عن دور الشاعر،  
فما الشاعر الا ممبر عن الحسن ، وليس حسن أشد اغراء  
بالتعبير من حسن النساء وجمال الطبيعة .

ولعل مما قاده أيضا الى هذا المزلق الخطر انه انتقل اثر  
صدور ديوانه الى طبقة اجتماعية وجبهة تتكون من كبار محرري  
الصحف ، وبعض السياسيين المحترفين ، وهذه الطبقة المنزلة  
بطبعها صيقة الثقافة ، مؤثرة لتستطيع الامور ، شديدة الولوج  
بالترثرة عن النساء والخمر والنمعة . فكانه كان يستجيب لما تراه  
تلك الطبقة وتطلبه في شاعرها وفناتها .

وقد كان من شأن هذه النعمة التي امتلا بها ديوان  
« ليالي الملاح النائه » أن تفتح للشاعر طريقا الى قلب عامة  
القراء ، ولا غرو فهو يستجيب لخيالهم المكبوت في تصوره للعلاقات  
السائبة بين الرجل والمرأة ، ويوازي في تلبية غرائزهم لونا  
من احلام اليقظة الجنسية التي كثيرا ما تخاليل النفوس المراهقة

مهما يختلف عمرها ، ما دامت قد ثبتت في وعيها عند حدود  
المراهقة .

ونحن لا نستطيع ان نفترض ان يتخذ شاعر من اللذة موضوعا  
له ، ولكن وصف اللذة وحدها لا يكفي ، كما ان وصف الالم وحده  
لا يكفي ، بل ينبغي ان يضاف اليهما لون من التعمق ونفسود  
النظرة ، بحيث تصبح اللذة فلسفة ومذهبها في الحياة .

وديوان « ليالي الملاح النائه » يستطيع في بعض قصائده ان  
يتجاوز مجرد الوصف الى ابتداع وجهة النظر . . ولكن ذلك  
قليل فيه .

ومن الغريب ان الشاعر في هذا الديوان قد غير صورته  
الشخصية من صورة الشاعر الرومانتيكي التي سبق ان رسمها  
لنفسه في ديوان « الملاح النائه » الى صورة الشاعر ذي الصبوات  
والعاشق او الشاعر المفلوت :

ويك ! لا انتظري الى قدحي نظرات القريب واقتربي  
شفتاك التديتان بهه فيهما روح ذلك الحب  
شهد المنتشي بخمرهما أن هذا الرحيق من عنبي

رب ليل مر أفيناه ضما وعناقفا  
وأردنا من حديث الحب خمرا نساقي  
في طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا  
وتجلى البدر فيه ، وصفا الجو وراقا

قلت لي والحياء يصبغ خديك : انار شمسي بها ام دماء  
ملء عينيك يا فتى الشرق احلام سكارى وصبوة واشتهاء  
وعلى تفرك المشوق ابتسام ضرجته الاشواق والاهواء  
او حقا دنياك زهر وخمر وغوان فواتن وضناء

قلت : يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والافغاني  
ما اثارته حرارة الجسد المشتاق الا مرارة الحرمان  
ان اجسادنا معاير أنوا (م) ح الى كل رانس فنان  
انا أهوى روحية العالم المنظور ، لكن بالجسم والوجدان  
هذه الصورة هي الصورة التي ارتضاها الشاعر لنفسه ،  
حتى قضى آخر أيامه ، وازدادت عنده وضوحا وجلاء كلما  
ازداد ترحيب دائرة اصحابه وقرائه بها حتى وصلت عنده الى  
مرحلة الزهو المسرف بقدرته على الشفق وبتعدد معاشقه ، كما في  
قصيدة « اعتراف » في ديوان « زهر وخمر » .

ولكن شيئا آخر كان يخاليل الشاعر ، وبخاصة بعد ان  
ارتبط بالسياسة ، وأصبح قريبا من الوفد ، وهو أن يكون شاعر  
مصر الاول كما كان شوقي ابا ن حياته ، يرثي كبراهها ويسجل  
احداثها ، ويناجي احلامها على المستوى السياسي .

وفي هذا المجال كتب علي طه كثيرا من قصائده ، لعل اجدرها  
بالبقاء قصائده عن فلسطين . وقد انضمت هذه الموجة في ديوانية  
الاخيرين .

لقد مات الشاعر الرومانتيكي في عام ١٩٢٨ ليحل محله الشاعر  
المتعشق الذي يكتب في بعض الاحيان عن اهتمامات الجماهير  
السياسية . وكلا الدورين متكاملان ينبعان من وجهة نظر  
واحدة . فالشاعر يريد ان يكون في وسط الحياة العامة ، قريبا  
من اهتمام الناس . ولا بد عندئذ من اللعب على الاوتار التي  
ترسيهم وتقرب من فكرهم ووجدانهم .

واخيرا ، لقد اثرت كثيرا من الاسئلة في هذه المقدمة  
او هي في الحق سؤال يلد سؤالا ليتشك عن سؤال جديد ، فهل  
وفقت في الجواب عنها ؟

ذلك لك ، ايها القارئ ، بعد أن تقرا هذه النماذج من  
شعر علي محمود طه .  
صلاح عبدالصبور

(٤) مقدمة « قصائد من علي محمود طه » الذي يصدر هذا  
الشهر عن دار الآداب بيروت .